مقدمه‌ای بر تأثیر کلام
امام علی علیه‌السلام در شعر عربی

اثر: دکتر باقر قربانی زرّین
از : دانشگاه آزاد اسلامی

چکیده

از آنجا که سخنان گهربار امام علی علیه‌السلام ـ که فروتر از سخن خالق و فراتر از سخن مخلوق است ـ سرچشمهٔ فصاحت و بلاغت بوده است، بسیاری از ادیبان، کاتبان و شاعران در طول تاریخ سعی داشته‌اند که با حفظ این سخنان و به کار گرفتن آنها، ملکهٔ بلاغت در نوشته‌ها و سروده‌هایشان پدیدار گردد و سخنانشان مقبول طبع همگان افتد و بزرگان همچون عبدالحمید کاتب، جاحظ بصری، عبدالرحیم بن زباته، ابوهلال عسکری و ابن ابی الحدید و دیگران بر این گفته اتّفاق نظر دارند.

از این رو در این مقاله برخی مواردی که شاعران بزرگ عرب، الفاظ یا معانی سخنان امام علی علیه‌السلام را در شعر خود به کار بسته‌اند تا حدّ امکان مشخّص گشته است که البتّه مشتی است از خروار و عشری است از اعشار.

*****

بما أنّ الامام عليّاً علیه‌السلام کان بحراً لایُنْزف، و غَمراً لایُسْبَر، یؤاتیه الکلام و یتابعه، و لای یطاق لسانُه، و کلامه علیه‌السلام بیّن المنهج و سهل المخرج، مطّرد السیاق و القیاس، «علی أمثلته حذا کلّ قائلٍ خطیب، و بکلامه استعان کلّ واعظ بلیغ، و مع ذلک فقد سبق و قصّروا، و قد تقدّم و تأخّروا؛ لأنّ کلامه علیه‌السلام الکلام الذی علیه مَسْحةٌ من العلم الالهی و فیه عَبْقَةٌ[۱] من الکلام النبویّ».[۲]

و نحن نعلم أنّ «نهج‌البلاغة» یُعتبر عندالعلماء والمفکّرین احدی الذخائر الاسلامیّة الکریمة، بعد کتاب اللّٰه تعالی والسنّة النبویّة، و من کنوزالسلام النفیسة. فهو کتاب یتضمّن من عجائب البلاغة، و غرائب الفصاحة، و جواهرالعربیّة، و ثواقب الکلم الدینیّة و الدنیویّة ما لا یوجد مجتمعاً فی کلام، و لا مجموع الأطراف فی کتاب.

قال محمّدبن طلحة الشافعی (۶۵۲ ق) فی «مطالب السؤول» فی مناقب الامام علیّ علیه‌السلام: الفصاحة تُنْسَب الیه، والبلاغةُ تُنْقَل عنه، والبراعة تستفاد منه، و علم‌المعانی و البیان غریزة فیه.[۳] و قال سبط ابن الجوزی (۶۵۴ ق) فی «تذکرةالخواصّ»: کان علیّ علیه‌السلام ینطق بکلامٍ قد حفَّ بالعصمة، و یتکلّم بمیزان الحکمة کلام ألقی اللّٰه علیه المهابة؛ فکلّ من طَرق سَمْعه راعة فهابَه، و قد جمع اللّٰه له بین الحلاوة و الملاحة و الطلاوة و الفصاحة ... أعجز الناطقینَ و حاز قَصَبَ السَّبْقِ[۴] فی السابقین، ألفاظ یَشْرقُ علیها نورُ النبوّة و یحیّر الأفهامَ والألبابَ.[۵]

و من المجمع علیه أنّ کلام الامام علیّ علیه‌السلام ملءُ قلوب العلماء و الأدباء، و ملء أسماعهم و أبصارهم، استهوتْهم روائعُه، و سحرتْهم أسالیبه و ألوانه. فوصفوه بما یدلّ علی بعد أثره فیهم و اعجابهم به.

قال الجاحظ البصریّ (۲۵۵ق) فی «البیان و التبیین» ما لفظه:

قال علیّ بن أبی طالب (ع): «قیمُة کلّ امرىء ما یُحْسن»[۶]. فلولم نقف من هذا الکتاب الاّ علی هذه‌الکلمة، لوجدناها کافیةً شافیةً و مُجْزیةً؛ بل لوجدناها فاضلةً علی الکفایة، و غیر مقصّرة

عن الغاية. وأحسن الكلام ما كان قليله يُغنيک عن كثيره، و معناه فی ظاهر لفظه.(۷) و قال ابن أبی الحديد (۶۵۶ق) فی ديباجة شرحه على نهج‌البلاغة:

و أمّا الفصاحة فهو عليه السلام امام الفصحاء، و سيّد البلغاء، و فی كلامه قيل: دون كلام الخالق، و فوق كلام المخلوقين ... و لمّا قال محقن بن أبی محقن لمعاوية:

جئتک من عند أعيا الناس، قال له: و يحک! كيف يكون أعيا الناس! فواللّٰه ما سنّ الفصاحة لقريش غيره.(۸) و قال الشريف الرضیّ (۴۰۶ ق) من خطب نهج‌البلاغة: إنّ فی هذا الكلام الأدنی من مواقع الاحسان ما لاتبلغه مواقع الاستحسان، و فيه زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان و لا يطّلع فجّها انسان.(۹)

و قال أيضاً بعد الخطبة ۲۱: انّ هذا الكلام لو وُزِن بعد كلام اللّٰه سبحانهُ و بعد كلام رسول اللّٰه صلّی اللّٰه عليه و آله، بكلّ كلامٍ لمال به راجحاً، و برّز عليه سابقاً.(۱۰)

و لقد أجاد السيّد المرتضی علمُ الهدی فيما قال:(۱۱)

نهجُ‌البلاغةِ نَهْجةٌ لذوی البلاغة واضحٌ و كلامُه لكلام أرباب الفصاحةِ فاضحُ
العلمُ فيه زاخرٌ والفضل فيه راجحٌ و غوامضُ التوحيد فيه جميعا لک لائحُ
و وعيدُه مع وعده للناس طُرّاً ناصحٌ تَحْظَی به هذی البريّةُ صالحٌ أو طالحُ

و قال آخر:(۱۲)

كتابٌ كأنّ اللّٰه رصّعَ لفظَه بجوهر آيات الكتاب المُنزَّل
حوی حِكماً كالدرّ ينطق صادقاً فلا فرق الاّ أنّه غيرُ مُنْزَلِ

و من الواضح أنّ كلماتِ الامام عليه السلام كانتْ معروفةً لدی العلماء و متداولةً بين الأدباء و قديماً استعان به كبراء العربيّة لأدبهم و تفكيرهم، كعبداللّٰه بن المقفّع، و عبدالحميد الكاتب، و ابن نباتة و أضرابهم من الكتّاب والبلغاء و الأدباء.

قال ابن واضح اليعقوبیّ (۲۹۲ق) فی كتابه «مشاكلة الناس لزمانهم»: و حفظ الناس عنه الخطب، فانّه خطب بأربعمائة خطبة، حفظت عنه، و هی الّتی تدور بين الناس، و يستعملونها فی خطبهم.(۱۳)

و قال المسعودیّ (۳۴۶ق) فی «مروج الذهب»: و الذی حفظ الناس عنه من خطبه فی سائر

مقاماته أربعمائة خطبة و نيّف و ثمانون خطبة يوردها على البدية، و تداول الناس ذلک عنه قولاً و عملاً.(۱۴)

و قال الكلينىّ (۳۲۸ـ۳۲۹ق) بعد نقل خطبة له عليه السلام فى التوحيد ما لفظه: و هذه الخطبة من مشهورات خطبه عليه‌السلام، حتّى لقد ابتذالها العامّة(۱۵)، و هى كافية لمن طلب علم التوحيد اذا تدبّرها و فهم ما فيها، فلوا جتمع ألسنة الجنّ و الانس ليس فيها لسان نبىٍّ على أن يُبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى به ـ بأبى و أمّى ـ ما قدروا عليه، ولولا ابانته عليه السلام ما علم الناس كيف يسلكون سبيل التوحيد.(۱۶)

و قال ابن دأب الليثىّ(۱۷) (۱۷۱ق) فى علىّ عليه‌السلام: ثمّ البلاغة؛ مال الناس اليه حيث نزل من المنبر، فقالوا: ما سمعنا يا أميرالمؤمنين أحداً قطّ أبلغ منک و لا أفصح، فتبسّم و قال: و ما يمنعنى؟ و أنا مولد مكّىّ، و لم يزدهم على هاتين الكلميتن.

ثمّ الخطب؛ فهل سمع السامعون من الأوّلين و الآخرين بمثل خطبه و كلامه و زعم أهل الادواوين لولاكلام علىّ بن أبى طالب و خطبه و بلاغته فى منطقه ما أحسن أحدٌ أن يكتب الى أمير جندو لا الى رعيّةٍ و قال ابن أبى الحديد: و منه تعلّم الناس الخطابة والكتابة؛ قال عبدالحميد بن يحيى: حفظتُ سبعين خطبةً من خطب الأصلع، ففاضتْ ثمّ فاضتْ. و قال ابن نباتة: حفظتُ من الخطابة كنزاً لا يزيده الانفاق الاّ سعة و كثرةً، حفظتُ مائة فصلٍ من موعظ علىّ بن أبى طالب.(۱۹)

و قال ابن ميثم فى مقدّمة شرحه على نهج البلاغة: و أمّا الفصحاء فمعلوم أنّ جميع من يُنسب الى الفصاحة بعده (علىّ عليه السلام) يملؤون أوعية أذهانم من ألفاظه. و يضمّنونها كلامهم و خطبهم فتكون منها بمنزلة ورد العقود كابن نباتة و غيره، و الأمر فى ذلک ظاهر.(۲۰)

وجاء أبو هلال العسكرى (۳۹۵ق) ببعض الأخذ من كلام الامام علىّ عليه السلام و قال: سمع أبو تمّام قول علىّ بن أبى طالب للأشعث بن قيس: انّک انْ صبرت جرى عليک قضاء ... الى آخره(۲۱)، و ان صبرت صبر الأكارم، و الاّ سلوت سلوّ البهائم،(۲۲) فحكاه حكايةً حَسنةً فى قوله:

و قال علىٌّ فى التّعازى لأشْعثٍ — و خاف عليه بعضَ تلک المآثم

أتصبر للبلوى عزاءً و حِسْبةً — فَتُؤ جَرَأم تسلو سلُوَّ البهائمِ(۲۳)

و قال أبوهلال أيضاً: و من حسن الاتبّاع أيضاً قول ابراهيم بن ا لعبّاس حيث كتب: اذا كان للمحسن من الثواب ما يُقنعه، و للمسيِء من العقاب ما يُقمعه، ازداد المحسن فى الاحسان رغبةً، وانقاد المسيءُ للحقّ رهبةً ... أخذه من قول عليّ بن أبى طالب، أخبرنا به أبو أحمد قال: أخبرنا أبوبكر الجوهرىّ عن المنقرى عن ابن جرير قال: قال علىّ بن أبى طالب: يجب على الوالى أن يتعهّد أموره و يتفقّد أعوانه، حتّى لا يخفى عليه احسان محسن و لا اساءة مسيءٍ. ثم لايترک واحداً منهما بغير جزاءٍ، قان ترک ذلک تهاون المحسنُ، و اجترؤ المسيءُ، و فسد الأمرُ، وضاع العمل.(۲۴)

و قال أبو هلال أيضاً بعد نقل بيت ابن طباطبا: «فقيمُ كلّ الناس ما يحسنونه»:

أخذ ابن طباطبا قول علىّ (ع) بلفظه و أخرجه بغيضاً متكلّفا، و الجيّد قول الآخر: «فقيمة كلّ امرىء علمه» فهذا و إن كان أخذه ببعض لفظه، فانّ «كلاً» ف بيته أحسن موقعاً منه فى بيت ابن طباطبا.(۲۵)

و قال صلاح الدين الصفدى فى ترجمة أحوال محمّدبن عبدالملک بن عبدالحميد الشهير بالزاهد الفارقى (۵۴۶ق) ما لفظه: و كان دعا الخلق الى اللّٰه تعالى و كان يتكلّم على الناس كلّ جمعة بعد الصلاة بجامع القصر ... و كان يحفظ كتاب نهج البلاغة و يغيّر و كان الكبار يحضرون مجلسه و الأعيان و الفضلاء، و كان يكلّم على لسان أهل الحقيقة بلسان عذب و كلام لطيف و عبارة رشقة و منطق بليغ فانتفع الناس به.(۲۶)

هذا بعضَ ما قاله العلماء و الأدباء حول تأثير كلام الامام علىّ عليه‌السلام فى‌الأدب العربىَّ واللتفصيل موضع آخر ...

الهوامش

۱ـ عبقة: رائحة. قال منتجب الدين (من أعلام القرن السادس) فى فهرسته، ص ۱۷۶: الشيخ القاضى جمال الدين محمد بن الحسين قاضى قاشان فاضل فقيه، كان يكتب نهج‌البلاغة من حفظه، و له رسالة «العبقة» فى شرح قول السيّد الرضىّ فى خطبة النهج.

۲ـ نهج‌البلاغة، تصحيح الدكتور صبحى الصالح، ص ۳۴، من خطبة الشريف الرضىّ (ره).

۳ـ مطالب السؤول، الطبعة الحجريّة ـ ايران، ۱۲۸۷ق، ص ۴۷.

۴ـ أطلق على كلّ مبرّز و مشمّر. (أقرب الموارد ـ قصب)

۵ـ تذكرة الخواصّ، طهران، ص ۱۱۹ـ۱۲۰.

۶ـ نهج‌البلاغة، الحكمة ۸۱.

۷ـ البيان و التبيين، تصحيح حسن اسندوبى. بيروت، ج ۱، ص ۱۰۶.

۸ـ شرح ابن ابى الحديد، تحقيق محمّد ابوالفضل ابراهيم، مصر، ج ۱، ص ۲۴ـ۲۵.

۹ـ نهج‌البلاغة، ص ۵۸.

۱۰ـ نفس المصدر، ص ۶۳.

۱۱ـ منهاج البراعة، للنحوى، تصحيح الميانجى، ط طهران، ج ۱، ص ۲۴۳.

۱۲ـ نفس المصدر، ج ۱، ص ۲۴۵.

۱۳ـ مصادر نهج‌البلاغة، لعبدالزهراء الخطيب، ط بيروت، ج ۱، ص ۵۰.

۱۴ـ مروج الذهب، للمسعودى، تصحيح محى‌الدين عبدالحميد، ط مصر، ج ۲، ص ۴۳۱.

۱۵ـ أى اشتهرتْ بينهم فكأنّها صارتْ مبتذلةً.

۱۶ـ الكافى، لثقة الإسلام الكلينى، تحقيق على أكبر الغفّارى، ط طهران، ج ۱، ص ۱۳۶.

۱۷ـ هوأبوالوليد عيسى بن يزيد، من أهل المدينة، و كان أكثر أهل عصره أدباً و علماً و معرفةً بأخبارالناس و أيّامهم و كان خطيباً شاعراً، توفّي سنة ۱۷۱ ق. (الأعلام ۱۱۱/۵؛ الكنى و الألقاب ۱/ ۲۸۱).

۱۸ـ الاختصاص، للشيخ المفيد، تصحيح على أكبر الغفارى، ط قم، ص ۱۴۸.

۱۹ـ شرح ابن أبى الحديد ۲۴/۱.

۲۰ـ شرح ابن ميثم، ط طهران، ج ۱، ص ۷۸.

۲۱ـ نهج‌البلاغة، الحكمة ۲۹۱.

۲۲ـ نفس المصدر، الحكمة ۴۱۴.

۲۳ـ كتاب الصناعتين، لأبى هلال العسكرى، ص ۲۳۲؛ ديوان أبى تمّام، ص ۳۰۰.

۲۴ـ كتاب الصناعتين، ص ۲۳۵.

۲۵ـ نفس المصدر، ص ۲۵۲ـ۲۵۳.

۲۶ـ الوافى بالوفيات، للصفدى، ط بيروت، ج ۴، ص ۴۴.